أ. كاري نادية امينة	السمات المنشودة في الخطاب التربوي الإسلامي	كلية الآداب والعلوم الإنسانية و العلوم الاجتماعية قسم علم الاجتماع - جامعة تلمسان -

الملخص:

يعتبر الخطاب التربوي من أهم أوجه التقدم و الوعي الحضاري المنوط بالمجتمع العربي المسلم، ذلك أنه يهدف إلى الحد من ظاهرة العنف التي يعرفها سواءا على المستوى المادي أو الفكري. وعليه جاء هذا الموضوع كمحاولة لتقديم هذا الخطاب من منظور اجتماعي يولي الأهمية القصوى للقطب المنشئ له و لمضمونه و أبنيته من أجل استخلاص أهم السمات المنشودة فيه على أساس أنه خطاب تربوي إسلامي يخاطب العقل لبلوغ غاياته و التي من أهمها في الوقت الراهن الحد من ظاهرة العنف.

يعد تحديد النسق المفهوماتي لأي بحث من أهم الخطوات المنهجية و المعرفية على حد سواء خاصة في التحليلات السوسيولوجية، إذ تتعدد المفاهيم و تتداخل فيما بينها، خاصة و أن الظاهرة الاجتماعية و الإنسانية بصفة عامة ظاهرة معقدة و مركبة، و من ثمة فان المفاهيم النظرية و الدالة عليها تتسم بنوع من العمومية و التعقيد و تعدد الأبعاد، و في محاولة للتغلب على هذا الإشكال تم طرح فكرة التعريف الإجرائي، و أساسها هو تحويل المفهوم النظري المجرد إلى مؤشرات واقعية يمكن ملاحظتها و بالتالي جمع البيانات عنها، أي هو ما يعرف في منهجية البحث السوسيولوجي بالانتقال من الشق النظري إلى الميداني و ذلك بتحويل المفهوم المجرد إلى إجرائي.

ونظرا لاتسام ظاهرة العنف كظاهرة اجتماعية بالتعقيد و التداخل، ذلك لتعدد صورها و أشكالها و تنوع دوافعها و أسبابها، كذلك لتعدد مستويات ممارستها، كما أن لهذه الظاهرة أبعادا اقتصادية و اجتماعية، ثقافية و سياسية و حتى نفسية. فإننا في هذه المحاولة الفكرية نحاول تقديم مفاهيم لغوية تراوحت بين العربية و اللاتينية بهدف استخلاص مفهوم أكثر إجرائية من شأنه أن يساعد في تحديد أهم السمات الفكرية

والمنهجية وحتى اللغوية التي عليها أن تتوافر في الخطاب التربوي على أساس أنه يهدف إلى الحد من هذه الظاهرة ولو على المستوى الفكري للمتلقي.

فكلمة عنف إذن في اللغة العربية هي من جذر ع-ن-ف وهو الخرق بالأمر وعدم الرفق به، وهو عنيف إذا لم يكن رفيقا في أمره وفي الحديث الشريف:»إن الله تعالى يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف». وعنف به: وعليه عنيفا؛ وعنافة: أي أخذ بشدة وقسوة، واعتنف الأمر: أخذه بعنف وأتاه ولم يكن على علم ودراية به.1

وهكذا فان كلمة عنف في اللغة العربية تشير إلى كل سلوك يتضمن معاني الشدة والتوبيخ واللوم والتقريع وعلى هذا الأساس فان العنف قد يكون سلوكا فعليا أو قوليا.

أما في اللغة اللاتينية فكلمة violence أو violentia معناها الاستخدام غير المشروع للقوة المادية بأساليب متعددة لإلحاق الأذى بالأشخاص والإضرار بالممتلكات. ويتضمن ذلك معاني العقاب والغصب والتدخل في حريات الآخرين.

وهكذا يتضح أن مفهوم العنف في اللغة اللاتينية يشير إلى السلوك الفعلي الذي ينطوي على استخدام غير مشروع للقوة المادية للتأثير على إرادة المستهدف أي المعنف وعلى هذا الأساس فان السلوك العنيف قد يكون متضمنا لمعاني الإرغام والقهر من الفاعل ومعاني الخضوع والاستسلام من المستهدف.

ومن خلال ما ذكر فإن اللجوء إلى القوة من أجل إخضاع أحد من الناس ضد إرادته، وممارسة القوة ضد القانون أو الحق هو العنف ذاته الذي يتخذ أشكالا متعددة ومتداخلة في حياة الإنسان. كما يرتبط مفهومه بمجموعة من المفاهيم الأخرى كالقوة والعدوانية والسلطة والحق والقانون، حيث يطال مجالات متعددة؛ اقتصادية وسياسية وثقافية وحتى التربوية منها. مما يجعله يثير العديد من الإشكالات المتعلقة بمنشئه ومظاهره ووسائله، ومدى ضرورته ومشروعيته من وجهة نظر القانون والأخلاق .فالعنف إذا

واقعة أساسية في تاريخ المجتمعات البشرية، وهو يعتمد على تقنيات ووسائل مختلفة، كما يتخذ أشكالا متعددة.

و من هنا يمكننا الحديث **إيف ميشو YVES MICHAUD** عن أشكال مختلفة من العنف المادي التي ميزت المجتمعات البشرية في القرن العشرين ؛ كالحروب والإبادات والاضطهاد ومعسكرات الاعتقال والإجرام وغير ذلك. وقد ساهمت التكنولوجيا في تطوير وسائل العنف المادي؛ حيث عملت التجارة الدولية للأسلحة على نشر وسائل العنف وجعله أكثر تخريبا وفتكا، وفي متناول كل الأفراد والجماعات. كما ساهم التقدم التقني في تطوير الآلات والأسلحة المستخدمة في العنف، مما جعل هذا الأخير مختلفا عما كان عليه في السابق، سواء من الناحية الكمية أو من الناحية الكيفية والنوعية. حيث هناك ارتباط للعنف المادي بوسائل الإعلام التي أدت إلى انتشاره والإخبار عنه. في حين يحدثنا بيير بورديو **Pierre BOURDIEU** عن العنف الرمزي الذي هو عنف غير فيزيائي، يتم أساسا عبر وسائل التربية وتلقين المعرفة والإيديولوجيات، وهو شكل لطيف وغير محسوس من العنف، وهو غير مرئي بالنسبة لضحاياهم أنفسهم. وينتقد بورديو الفكر الماركسي الذي لم يولي اهتماما كبيرا للأشكال المختلفة للعنف الرمزي، مهتما أكثرا بأشكال العنف المادي والاقتصادي. كما أشار بورديو إلى أن العنف الرمزي يمارس تأثيره حتى في المجال الاقتصادي نفسه، كما أنه فعال ويحقق نتائج أكثر من تلك التي يمكن أن يحققها العنف المادي .

إن العنف الرمزي يمارس على الفاعلين الاجتماعيين بموافقتهم وتواطئهم. ولذلك فهم غالبا ما لا يعترفون به كعنف؛ بحيث أنهم يعتبرونه كبديهيات أو مسلمات من خلال وسائل التربية والتنشئة الاجتماعية وأشكال التواصل داخل المجتمع. ومن هذه الزاوية يمكن، حسب بورديو فهم الأساس الحقيقي الذي تستند إليه العنف الرمزي الذي يبسط سيطرته وهيمنته؛ فهو يستغل بذكاء التقنيات والآليات التي يمرر من خلالها إرادته دون

إرادة الضحية أو المعنف، والتي تسهل عليه تحقيق أهدافه بأقل تكلفة وبفعالية أكثر، خصوصا وأن هناك توافقا بين البنيات الموضوعية السائدة على أرض الواقع وبين البنيات الذهنية الحاصلة على مستوى الفكر.

هكذا يتبين أن العنف يتخذ شكلين رئيسيين؛ الأول هو العنف المادي الذي حدثنا إيف ميشو عن مظاهره المختلفة، والثاني هو العنف الرمزي الذي بين بورديو بعض وسائله ومدى فعاليته. من هنا يبدو أنه من المستحيل الحديث عن مجتمعات إنسانية خالية من العنف؛ فهو ظاهرة أكيدة في تاريخ المجتمعات البشرية. حيث تظهر الحاجة الملحة إلى توعية أفراد المجتمع العربي والإسلامي بأخطار التحديات التي تواجهه والتي تحمل في طياتها عنفا ماديا وآخر رمزيا، والذي لا يمكن مواجهته إلا من خلال التربية والخطاب التربوي على اعتبارها أداة فعالة للتوعية بهذا العنف وبالتالي لمواجهته، كذلك على اعتبار الخطاب وجها من أوجه التقدم والوعي الحضاري المنوط بهذا المجتمع.

وحيث تعتبر المدرسة الوسيلة التي اصطنعها المجتمع بجانب الأسرة لنقل الحضارة ونشر الثقافة وتوجيه الأبناء الوجهة الاجتماعية الصحيحة كي يكتسبوا من العادات الفكرية والعاطفية والاجتماعية التي لا تساعدهم فحسب على التكيف الصحيح في المجتمع بل كذلك على التقدم بهذا المجتمع، فالمدرسة والأسرة هما إذن المؤسستان التي اصطنعها المجتمع للإشراف على العملية الاجتماعية.ولهذا فهما الوسيلتان التي من خلالهما يمرر الإنسان لأجيال المستقبل تجربته الماضية ثم مخططاته ومشروعاته المستقبلية والتي تدخل بشكل عام ضمن ما يسمى بالبرامج التربوية، من أساليب بيداغوجية وخطابات تربوية ، بشكل ضمني كما هو الشأن في كل أسرة ، أو بشكل مهيكل ومنظم كما في المدرسة . لكن استقلال المؤسستين واختلاف طبيعتهما على مستوى التركيبة وكذلك الإمكانات ثم التسيير والتدبير، جعلهما (وفي نظر الكثير) يختلفان ولا يتعاونان بشكل مستمر لتحقيق الهدف الفعلي لكل واحدة منهما والذي هو في الأصل هدف مشترك . ولأن المجتمعات

تختلف في تراثها الاجتماعي ونظمها السياسية والاقتصادية تبعا لاختلاف مناهجها الفسلفية العامة ورؤيتها للإنسان والحياة بصفة عامة، ولكل أفراد المجتمع رغبة أكيدة في الحفاظ على كيان مجتمع بما فيه من قيم وأساليب معيشة وهي القيم المستمدة من خبرتهم عن الأجيال وحياتهم الاجتماعية لذلك فهو يرى بقاءها واستمرارها من أجل بقاءه.

فالمدرسة والأسرة تعتبران المؤسستان التربويتان الأكثر أهمية بين بقية المؤسسات الأخرى، نظرا لدورهما الفعال في العمل الهادف والمنظم تبعا لأهداف المجتمع ككل وذلك أن هاتين المؤسستين واللتان تعتبران من أهم هياكل التنشئة الاجتماعية يتم من خلالهما تمرير الخطاب التربوي.

وحيث ينصب هذا الموضوع على الخصائص التي ينبغي توافرها في الخطاب التربوي الإسلامي الراهن، فهو ليس محاولة لتحليل هذا الخطاب ولا لتقييمه وإنما هي مجرد رؤية لما يمكن أن يتوافر عليه مستقبلا.

هذا الخطاب يتسم بتنوعه من حيث تنوع من يلقونه ومن يتلقونه، كما تختلف الموضوعات التي ينصب فيها باختلاف السياقات التي تكتنفه.

ولعل أهم ما ينبغي الإشارة إليه في هذا الصدد هو أولا عقلنة الخطاب التربوي الإسلامي **le rationaliser** أي إضفاء صفة العقلانية2 عليه ولا يتم ذلك إلا بالثورة على الأفكار الرجعية التي لا ترتبط بالإسلام قطعا، ذلك أن من طبيعة الإسلام عقيدة وحركة، أنه في ثورة مستمرة ذات جوانب متعددة...فهو في ثورة على الانحراف عن التوحيد ترمي إلى تحرير العقول من الشك والشرك والخرافة والوهم، والجمود على موروثات الباطل والتقليد الأعمى لكل ما هو مستحدث، وهي ثورة على الأوضاع المتردية في علاقات الأفراد وشؤون التنشئة والتربية، ونظم الاجتماع والاقتصاد وسائر ضروب النشاط الاجتماعي...

وبهذا فإن العقلانية الإسلامية تختلف عن تلك الغربية التي تحدث عنها فلاسفة اليونان قديما، كما تختلف عن التي قال بها **كانط E.KANT** والتي كانت إفرازا ثقافيا أوروبيا لمواجهة اللاهوت الديني الذي ساد أوروبا في عصر نهضتها وكلتاهما ترفض الوحي الإلهي ولا تؤمن إلا بما هو محسوس ومشاهد3. أما الافتراض القائم في العقلانية الإسلامية فهو العمل على المؤاخاة بين العقل وبين ما جاء به الوحي أي بين الواقع العيان والمحكوم بالعقل وبين ما جاء في النص القرآني الكريم وما جاء على لسان الرسول عليه الصلاة والسلام من أحاديث نبوية ثابتة .

ثانيا علمنته **le scientifiser** أي إضفاء صفة العلمية عليه، حيث يربط الإسلام بين الإيمان والفكر؛ المعرفة والتقدم في الميدان العلمي... ذلك أن من أحكامه أن لا يشل حركة العقل في تفكيره، فإذا بني الخطاب التربوي الإسلامي على أسس علمية وجه الفكر أو العقل المخاطب إلى تحليله هو الآخر على أسس علمية مما يجعل فهمه وتقبله أمرا سهلا طالما خاطب العقل.

ثالثا منهجيته حيث يوضع له منهجا خاصا، من خلاله تصل الأفكار واضحة وتأتي مرتبة، الأمر الذي سوف يجعلها أكثر بساطة في ظاهرها وأكثر عمقا في مضمونها(من خلال عقلنة وعلمنة أفكار الخطاب التربوي الإسلامي).

إنه وبتوافر هذه الأسس الثلاث في أي خطاب تربوي من شأنه إيصال الفكرة وإيضاحها وفق ترتيب منطقي، وبالتالي يسهل على هذا الخطاب بلوغ غاياته من توجيه وتوعية وبالتالي مواجهة العنف الرمزي والفكري الذي قد يهدد أفراد المجتمع الموجه إليه.

ولكن ثمة بعض القواعد والسمات التي من شأنها إنجاح الخطاب التربوي الإسلامي ومن أبرزها مايلي4 :

- أن يتوجه الخطاب الى الحاجات الأساسية التي يحتاج إليها من يوجه إليه الخطاب

-أن يراعي من يثبت الخطاب المستوى اللغوي للمخاطبين.

-أن يلتزم في صياغة الخطاب بتحقيق المعادلة بين اللفظ والمعنى بحيث لا إيجاز مخل وإطناب ممل.

-أن يحذر في الخطاب ما يوحي بأن المخاطب يقل من شأن المتلقي لخطابه، لأن الوقوع في مثل هذا الأمر من شأنه أن يبرر للمتلقي عزوفه عن التأمل في مضمون الخطاب والانصراف عنه ومقاومة ما يدعو إليه بطريقة شعورية أو لاشعورية5.

-إن شكل الخطاب لا ينفصل عن مضمونه فليس ثمة خطاب رشيد يعتمد على قعقعة لفظية إذ لا يمكن لخطاب أن ينجح في إبلاغ مضمون رفيع المستوى دون أن يعرضه صاحبه في حلة لفظية تعادل مستوى مضمونه6.

- يؤكد الخطاب التربوي الإسلامي على التنوع الثقافي حيث يدعو النص القرآني الناس في ثقافات مختلفة إلى التعارف من أجل تأدية الوظائف التي تمكن الفرد من تكوين وحدات اجتماعية.

-إن الخطاب التربوي الإسلامي يدعو إلى نشر القيم والتي يؤكد من خلالها حرية الأفراد داخلها بإقامة العدل وتساوي الفرص واللذان لن يتحققا إلا بالصدق قولا وفعلا. الأمر الذي تنادي به الشريعة الإسلامية نصا وخطابا7.

الهوامش

-1أبو الفضل محمد بن مكرم بن منظور:لسان العرب، ج 15، دار المعارف، القاهرة، 1979، ص3133.

-2محمد عمارة:في المنهج الإسلامي، الكتاب رقم 6 في المنهجية الإسلامية، 1991، ص70-65.

-3أحمد المهدي عبد الحليم: نحو صبغة إسلامية للبحث الاجتماعي و التربوي، في مجلة رسالة الخليج، المجلد الثامن، 1998، ص117.

-4صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، الطبعة الأولى، القاهرة، 1996، ص90.

-5زكي نجيب محمود: تجديد الفكر العربي، ط8، دار الشروق، القاهرة، 1992، ص32.

-6أسامة أمين الخولي: العرب و العولمة، مركز الدراسات الوحدة العربية، ط2، 1998، ص 112.

-7أحمد المهدي عبد الحليم: التحديات التربوية للأمة العربية، دار الشروق، 1999، ص98.